صديق هام ...

لأنطون تشيكوف

وجدت (ڤاندا) الساحرة، أو كما جاء وصفها فى جواز السفر « المواطنة الشريفة ناستاسيا كاناڤكن » ، وجدت نفسها بعد خروجها من المستشفى فى حال لم تصادفها فى حياتها من قبل ، لا مأوى لها ولا مال عندها ؛ فماذا يمكن أن تفعل ؟

كان أول شىء عملته هو ذهابها إلى مصرف الرهائن ، حيث أودعت خاتمها الفيروزى، الحلية الوحيدة التى كانت تملكها ، وأخذت جزاء ذلك روبلاً واحداً

ولكن ماذا يفيدها هذا الروبل ؟ إنها لا تستطيع أن تشترى بهذا المبلغ معطفاً أنيقاً ، أو قبعة واسعة ، أو حذاء من ذى اللون الفضى اللامع وهى — بدون هذه الثياب — تشعر بأنها عريانة . يخيل إليها أن كل من حولها حتى الكلاب والحمير ترمقها وتضحك من بساطة ثيابها . وكانت الثياب كل ما يشغل تفكيرها . لم يثر اهتمامها قط التفكير فيماذا تأكله ولا أين تنام ؟

« آه لو أتيح لى لقاء صديق هام ! إذن لحصلت على بعض المال . ما من صديق يمكنه أن يرفض لى طلباً كهذا . إنى واثقة »

كان هذا اتجاه تفكيرها ، ولكنها لم تلق هذا الصديق المنشود . إن من الأيسر أن تاقى أمثاله فى المساء فى ماهى « الريتيسانس » ، ولكنهم لن يسمحوا لها بالدخول فى هذا الملهى، وهى ترتدى هذه الثياب الحقيرة ، ورأسها عار . ما ذا يمكن أن تفعل ؟

وبعد تردد طويل ، وبعد أن أنهكها طول السير والجلوس والتفكير ، استقر رأى ڤاندا على أن تلتمس ملجأ فتذهب لتوها إلى منزل صديق هام وتطلب مقداراً من المال

وأخذت تفكر فيمن تقصد . « لا يمكننى أن أذهب إلى ميشا ، إنه رجل متزوج ... والرجل العجوز ذو الشعر الأحمر سيكون فى مكتبه فى مثل هذا الوقت من النهار » ، وتذكرت ڤاندا طبيب أسنان يدعى فينكل ، وهو يهودى اعتنق المسيحية وكان قد أهدى إليها سواراً منذ ستة أشهر . وكانت فى يوم من الأيام قد صبت كأساً من الخمر فوق رأسه وقت المشاء فى النادى الألمانى . عمها السرور إذ فكرت فى فينكل وقالت :

« لا بد أنه سيمنحنى مقداراً من المال إذا وجدته فى المنزل ؛ وإذا لم أجده فسأحطم كل مصابيح الكهرباء التى فى منزله »

كان هذا اتجاه تفكيرها وهى فى طريقها إليه

وقبل أن تصل إلى منزل طبيب الأسنان رسمت خطتها للعمل . إنها ستصعد السلم قفزاً وهى تضحك عابثة ، ثم تندفع إلى حجرة الطبيب وتطلب منه خمسة وعشرين روبلا . ولكنها ما كادت تلمس الجرس حتى أحست بهذه الفكرة تتبخر من ذهنها . وبدأت ڤاندا تحس بالرهبة والضيق ، مما لم تعهده من قبل . لقد كانت دائماً جريئة فى حلقات الشراب، ولكنها الآن وهى تلبس هذه الثياب الحقيرة تشعر كأنها شخص يطلب إحساناً ؛ وقد لا يسمح لها حتى بالدخول . وشعرت فجأة بالذلة والمسكنة ، وأحست بالخجل والاضطراب

رآك القلب أبهج ما تكونُ
وعين الحب هادية أمونُ
عزاء أيها الحسن

إليه يا جنة جفاها النعيم
هكذا العمر أنسه لا يدوم
كأنك نفس مات فيها غرامها
فلم يبق إلا بؤسها وسقامها
حليةُ النفس الهوى
فإذا توى[1]

عادت كغصن قد ذوى
أو ظلِّ نجم قد هوى
على قدر ما فى النفس من خالص الجوى
يكون لها قدر ويسمو بها اللب
فإن فقدته فالفناء بها ثوى
وما قيمة النفس التى ما لها حب

يا روضة ذبلت
وخميلة خملت
أنت مثال السعد إذ فاتا
بل أنت رمز الحب قد ماتا

هكذا تصبح الحياة رفاتا
أقول للغادين لو يسمعون
هنا الهدى لو كنتم تبصرون
هلم انظروا كيف تبلى القصور
وكيف تموت الحديقة
كذلك فيكم يجف الشعور
وتخفى الأمورُ
ويعمى البصير
وتموت الحقيقة

خليل شيبوب

(١) توى : هلك

أخذت تفكر وهي لا تجد من نفسها الشجاعة الكافية لأن تغمز الجرس وقالت في نفسها : «ربما يكون قد نسيني . كيف يمكنني أن ألقاه في هذه الثياب وأنا أبدو كخنسولة حقيرة أو عاملة فقيرة ؟» ودقت الجرس في ضعف . وسمعت وقع أقدام تقترب : إنه البواب . « هل الطبيب موجود ؟ » وجهت السؤال وهي ترجو أن يكون الرد « كلا » ، ولكن البواب بدلاً من أن يجيب صحبها إلى القاعة وساعدها على خلع معطفها

وبهرتها القاعة بفخامة مظهرها وروعته ، ولكن نظرها علق بمرآة ضخمة ، فواجهتها لترى فتاة رثة الثياب ، لا تلبس معطفاً أنيقاً ، ولا تضع فوق رأسها قبعة واسعة ، ولا تنتعل الحذاء ذا اللون الفضي

ورأت ڤاندا أنها في ثيابها البسيطة هذه ، تبدو كحائكة أو غاسلة ثياب ؛ واستغربت أنها تحس بالخجل ولا تجد في نفسها أثراً لتلك الشجاعة ، بل الوقاحة التي اعتادتها . بل إنها لم تعد تفكر في نفسها أنها ڤاندا « الساحرة » فما هي إلا تاستاسيا كاناڤكين كما كانت في الأيام الخالية

وتقدمتها الخادم إلى حجرة الكشف قائلة لها : « تفضلي بالدخول . سيأتي الطبيب بعد دقيقة واحدة . اجلسي »

وجلست ڤاندا على مقعد مريح وأخذت تفكر : « سأطلب منه أن يعيرني هذا المبلغ . ليس في هذا أقل حرج . إن معرفتي إياه قديمة . آه لو أن هذه الخادم تخرج . إني لا أميل إلى مصارحته أمامها . ما الذي يدعوها للبقاء هنا ؟ »

وبعد خمس دقائق انفرج الباب عن ڤينكل . كان يهودياً طويلاً ، أسمر اللون ، ذا خدين متهدلين وعينين منتفختين . كان منظر عينيه ، وخديه ، وصدره ، وجسمه ، بل منظره كله يمجه الذوق ويثير الكراهية . كان في ملهى « رينيسانس » والنادي الألماني يبدو ثملاً ، ويبذل نقوده للنساء عن سعة . وكان واسع الصدر ، صبوراً على ألاعيبهن (فمثلاً عندما صبت ڤاندا كأس الخمر فوق رأسه ، لم يزد على أن ابتسم ورفع أصبعه في وجهها منذراً) ، أما الآن فهو يبدو جامد الحس ، جاداً ، ثقيل الدم كرئيس الشرطة ، وهو ما يفتأ يلوك شيئاً بين شدقيه

قال مخاطباً ڤاندا دون أن ينظر إليها : «هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟» . ونظرت ڤاندا في وجه الخادم الصارم ومظهر ڤينكل ، الذي كان من الواضح أنه لم يعرفها ، واحمرت وجنتا ڤاندا

— «هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟» ردد الطبيب سؤاله في ضيق مكتوم ، فهمست ڤاندا : «أحس ألماً في أسناني»

— « حسن ... أين موضع الألم ؟ »

وتذكرت ڤاندا أن بإحدى أسنانها تجويفاً ، فقالت :

— « في الفك الأسفل ... على اليمين ... »

— «هيه ! افتحي فمك» . وقطب ڤينكل جبينه ، وأمسك أنفاسه ، ثم أخذ يكشف عن السن . وسأل ڤاندا : « هل تؤلمك ؟ » . ثم وضع آلة معدنية فوقها . وأجابت ڤاندا كذباً : «نعم» ، وهي تتساءل في نفسها : « هل أذكره ؟ إنه من المؤكد سيذكرني . ولكن هذه الخادم ! ما الذي يدعوها للبقاء هنا ؟»

وفجأة انطلق ڤينكل قائلاً « لا أنصحك بمعالجة هذه السن . إنها لا تستحق العلاج » . وبعد فحص السن مرة أخرى ملوناً شفتي ڤاندا ولثتها بأصابعه الملوثة بلفائف التبغ ، أمسك أنفاسه مرة أخرى ، ثم وضع شيئاً بارداً في فمها . وأحست ڤاندا فجأة بألم حاد ، فصرخت ، وقبضت على يد ڤينكل

فقال الطبيب : « كل شيء على ما يرام . لا تنزعجي . ليس لهذه السن فائدة ... يجب أن تكوني شجاعة» ، وأخرج أصابعه من فمها ملوثة بالدماء وممسكة بالسن ... وتقدمت الخادم ووضعت إناء تحت فم ڤاندا . وقال ڤينكل : «عليك أن تغسلي فمك بالماء البارد عند عودتك إلى المنزل ، فإن هذا سيمنع النزيف »

ثم واجهها في مظهر الرجل الذي ينتظر انصرافها لتدعه في سلام . فقالت : « نهارك سعيد . ثم اتجهت إلى الباب منصرفة . وتساءل ڤينكل في لهجة ضاحكة : «هم ! وما رأيك في أجري ؟»

« آه ! حقاً ! » وتذكرت ڤاندا قدت يدها إلى اليهودي بالروبل الذي أخذته رهناً على خاتمها

وعند ما خرجت ڤاندا إلى الطريق تضاعف إحساسها بالخجل ، ولكنه في هذه المرة لم يكن الفقر سبب خجلها . إنها لم تعد تجد الحاجة إلى قبعة واسعة أو معطف أنيق ، وإنما أخذت تجوب الطرقات والدم ينزف من فمها ، وهي تفكر في حياتها الكريهة ، حياتها المؤلمة ، والإهانات التي عانتها والتي سوف تعانيها في الغد ، وفي الأسبوع القادم ، بل طول عمرها حتى نهاية أجلها

« آه ! كم هذا مؤلم ! رباه كم هذا مخيف ! »

وعلى كل حال ففي اليوم التالي ، عادت ڤاندا الساحرة إلى ملهى « رينيسانس » لترقص هناك ، وكانت ترتدي قبعة حمراء واسعة ، ومعطفاً أنيقاً ، وحذاء ذا لون فضي لامع . وقد صحبها للعشاء تاجر شاب جاء أخيراً من قازان .

صبوح السيد الشماع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)